وادي الظلال

الجزء الثاني

الفصل الثالث

أخذت صحة سلمى في تحسن مطّرد بعد العملية.. انخفضت الحرارة إلى وضعها الطبيعي، وأخذ وزنها في الازدياد، واكتست وجنتاها بحمرة خفيفة، فأعادتها الراهبة إلى غرفتها الأولى.. وكانت فرحة زميلاتها بها كبيرة، ولم يكن قد تغير أحد منهن غير أن السرير الشاغر، كان قد ملأته فتاة نقلتها الراهبة من غرفة الصغار المرضى، ولم تكن راضية كثيرا عن هذا النقل.. وأحسّت سلمى بانجذاب نحوها منذ اللحظة الأولى..

كانت الفتاة تدعى إقدام في مثل سن سلمى سمراء طويلة ناحلـة ذات عينـين نجلاويتين تضحكان دوما ولها نغمة موسيقية فيها بحة خفيفة.. وكان والدها أحـد الساسة الأحرار الذين هربوا من العراق حين فشلت ثورة "رشيد عالي الكيلانـي" على "نوري السعيد"، وساد البلاد حكم إرهابي وحشي أعدم خلاله نفر من خيـرة أبناء الوطن، وامتلأت السجون بحشد من المخلصين..

عاشت إقدام مع عائلتها في لبنان في صمت حياة ذوي العفّة من الفقراء بعـد أن صودرت أموالهم في العراق.. لقد ناموا على الطوى، حتى قيّض الله لوالـدها من سعى له بوظيفة حكومية صغيرة أبقت على حياة العائلة مـن الفنـاء التـام.. مرضت أختها الكبيرة فاستشفت في "بحنس" بضعة أشهر استردت فيها صـحتها وعادت.. ثم أصيبت إقدام بنفس المرض ولكنها على عكس أختها كانـت حالتهـا تزداد سوءا يوما بعد يوم، وسجّلت الأشعة ثلاثة كهوف في صـدرها.. وكانـت إبرتها الهوائية غير ناجحة كثيرا، وتنتابها نوبات سعال عنيفـة فيحـتقن وجههـا وعيناها. وتستمرّ النوبة نصف ساعة وخصوصا في الصباح حين تـستيقظ مـن النوم، وفي الساعة الرابعة بعد فترة الراحة النهارية، وعند المساء حين تدلف إلى فراشها لتنام.. وما كانت تصغي لنصيحة الطبيب في أن ترتاح، فهي لا يقرّ لهـا قرار في فراشها، ولا تُرى إلاّ على الطريق خارج بوابة المصح مع رفيقـة لهـا شيعية تدعى زينب.. وهي فتاة ناقهة، معتدلة الطول ذات وجه مربع كبير أسـمر

جذاب الملامح.. وكان تطور مرض إقدام يجعلها كثيرة النرفزة، فتهـدئها زينـب التي تكبرها ببضعة أعوام، والتي تتصف بصفات أكثر واقعية ومرحا، وتعطـف عليها عطف أم رؤوم.. فإذا لم تكن إقدام تشتهي الطعام، ذهبت زينب إلى اللحـام خارج البوابة، واشترت لها الكبد أو اللحم وشوته لها.. وإذا كانت إقـدام حزينـة، ضاحكتها بمختلف النكات، وجلست إلى سريرها تلاعبهـا الـورق.. وإذا ارتفـع صوتها بالغناء، وكان لها صوت شجي، عنفتها زينب وأجبرتها على السكوت!..

اقترحت سلمى على فتيات الغرفة في أن يتعاونّ مع غرف الجناح الثلاثـة المجاورة، لاستئجار راديو كان قد ورثه ممرض في قسم الرجال عـن مـريض توفي، وأخذ يؤجره لمن يريد من المرضى.. وكان على كل فتاة فـي الغرفـة أن تدفع ثلاث ليرات، وباقي الغرف ليرة واحدة.. فلقيت الفكرة رضى وذهبت سلمى وإقدام لإقناع باقي الغرف.. ولم يمض يومان حتى كان صـوت الراديـو يحتـلّ كوميدينة الآنسة هيفاء كبيرة الغرفة، وصوته يرنّ في أرجاء المصح، واحتـشدت الغرفة بالزائرات، وبدأ الرقص بين الأسرّة..

ولم يكن المصح ليخلو من أصوات جميلة تشارك المذياع قي إرنانها، فهنـاك عدا إقدام، نديدة وهي امرأة ناقهة في الثلاثين تساعد الراهبة في التمريض وتبـدو وافرة الصحة كأنها تفاحة ناضجة، ولها حنجرة قوية تساعدها في ترديد أصـعب الأغاني لأشهر المطربين.. وهناك سليمى فتاة ضئيلة محدودبة الظهر قليلا سمراء زرقاء العيون وذات شعر أجعد أشقر، وهي مصابة في عظامها وحالتها يائـسة.. ولا يستطيع الإنسان حين يسمع غناءها الشجي، إلاّ أن يـصمت المـذياع وإلاّ أن تجول في عينيه دمعة لانفعاله وتأثره أن مثل هـذا الـصوت المخملـي الـساحر سيطويه الثرى عن قريب.. وكان هناك بائع الحليب اللبناني ذو الأربعـة عـشر ربيعا الذي يصدح صوته بأغنية "أبو الزلف" في أرجاء المصح، فـإذا مـا مـرّ بالغرفة ووقف ليستمع إلى المذياع هبّت أليس إليه مؤنبة: ألا تزال هنا يا فارس؟.. ألا تخشى على نفسك من العدوى؟.. إذهب إلى بيروت، إذهب إلى الإذاعة! ستفتح لك السماء أبوابها.. ألا تقدّر النعمة التي أعطاك الله إياها حتى تدفنها في الحيـاة، في هذا المكان؟ فيجيبها بانكسار: "إن أهلي بحاجة إلى عملي هنا، ولا يتوفر لـدي

ما أسافر به إلى بيروت، ولا أعرف أحدا هناك، وهل من في الإذاعة يستقبل صبيا بثياب مهلهلة؟"..

نصحته أليس أن يذهب إلى "مامير" ويأخذ من عندها ثيابا على مقاسه مما يتركه الشافون في الدرجة الأولى ويعيد كيها، وتبرّعت جورجيت ويولا وسلمى ببعض المال لسفره فلما رفض قلن له: خذها الآن وأعدها إلينا حين تنجح في إيجاد عمل هناك..

* * *

كان أحمد رسول خير للمريضات يجمع بينهن وبين عالمهن الخارجي، فلا يكاد يطل من باب الغرفة حتى تهتف الأصوات :

- أهناك من رسالة؟..

وكانت الرسائل التي تصل سلمى دائما منتفخة عامرة، فكل فرد في أسرتها يبعـث إليها برسالة خاصة، حتى والداها ينيبان عنهما من يكتب لهما كلمـة تعبـر عـن شعورهما.. وكانت دموع سلمى تسيل في صمت وهي تقرأ.. أما حين كانت تستلم رسالة من خطيبها تنبعث في نفسها حوافز الشفاء لتكون قادرة على إسـعاد ذلـك الشاب الذي يحبها بكل ذلك العنف والإخلاص.. وأما رسائل عبد الرحمن فلقد كان لها طابع خاص فهي شهرية مختصرة، ترافقها دائما حوالة بمبلغ خمسة وعشرين ليرة لبنانية، مصروف جيب لها..

جاءتها "نديدة" ذات يوم دامعة العينين وقالت:

- سمعت أنك تحسنين كتابة الرسائل يا سلمى، إن زوجي لم يبعـث إلـي بكلمة أو فرنك منذ ستة أشهر.. لم يزرني وبيروت رمية حجـر مـن هنا.. ولقد سمعت أنه يبحث عن عروس بالرغم أن لـي منـه ثـلاث بنات.. أريد رسالة مؤثرة تعيده إلى صوابه..

كان منظر نديدة مثيرا للنفس فلقد كانت تحب زوجها حبا جما، ولم تكـن ذكـراه لتفتر على لسانها.. فهي من النوع الفياض الطيب القلب، ولا يسع صدرها فرحـا أو ترحا دون أن تشرك الجميع ما بنفسها..

وكتبت سلمى لها الرسالة وقالت:

- لن يبيت زوجك في بيروت ليلة تصله رسالتك..

وقفزت نديدة فرحا، وأخذت تقبل سلمى وتدعو لها بالشفاء، وتشنف أذنيها بأغنيـة حلوة فاض بها قلبها المترع..

ولم يخب ظن سلمى فلقد جاء زوج نديدة وطمأنها عن بناتها، وعن كذب الإشاعات التي تحوم حوله ويعتذر لها بالمرض وبكثرة الأعمال في الدائرة، وبقلة ذات اليد.. وجاءت نديدة إلى سلمى راقصة المشية ضاحكة السن تحمل بعض الفاكهـة ممـا أحضره زوجها.. فأخذتها سلمى حين رأت أنها ستجرح شعورها برفضها وفرقتها بالتساوي على فتيات الغرفة..

وكانت هذه الحادثة سببا في اشتهار أمر سلمى بكتابة الرسائل فتقـاطرت عليهـا المريضات، كل واحدة تبثها خبيئة نفسها وما تعاني من هموم وقلـق، ولـم تـردّ سلمى أحدا فكانت تشارك الجميع مشاعرهن، وتقرأ لهن الرسائل التـي تـردهن، وتكتب لهن الأجوبة.. فجعلتها هذه المهمّة تتطلع على البؤس الذي يعيـشه أكثـر الناس.. لقد جاءتها الراهبة يوما وطلبت إليها أن تذهب إلى إحـدى المريـضات المشرفات وتكتب لها وصيتها..

كانت المسكينة لا تتجاوز الخامسة والثلاثين تلهث أنفاسها مع الكلمـات، وعبثـا حاولت سلمى أو الراهبة أن تفهما ما تريد..

- ابني..ابنتي.. الماكينة..

فهمت سلمى أن المسكينة أرملة تملك من حطام الدنيا ماكينة خياطة قديمة، ورثتها عن أمها، وكانت تعيل بها ابنها وبنتها القاصرين قبل أن يستفحل مرضها.. وأنها تريد أن تضمن بقاء الماكينة لهما فلا يتعدى عليها أحد من الأقارب..

كان القلق قد استحوذ على المرأة لمصير ولديها.. فهي لا تدري الوسيلة لتضمن مستقبلهما، وكان دمعها المنحدر على خديها الغائرين في ساعاتها الأخيرة لممّا يملأ النفس أسى..

كتبت لها سلمى الوصية بسرعة البرق، وهي تلتقط منها الكلمات بصعوبة.. ولما سألتها عن الشخص الذي تبعث له بالرسالة، اختنق صوت المسكينة، وعبثا حاولت

أن تلفظ الإسم بشكل مفهوم.. ولم تلبث أن لفظت أنفاسها.. فاستبقت الرسالة معها حتى يأتي من يسأل عن المرأة فتعطيه إياها...

* * *